مُقدمات المُحاجَّة في الخطاب اللّساني بين إشكالية الوضع ومعضلة التسلسل ـ سوسير نموذجًا ـ

د. جيلي محمد الزين
جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية

مُلخص:
درَجت الأدبيات المُشتغلة بالمُحاجَّة على اعتبار أن كُلّ دليل إلا ويتألف من مُقدمات هي جِماعُ القوة التعليلية[1] التي تختزنها الدّعوي. حيث يُراد بمقدمات المُحاجَّة أو مُسلماتها مُنطلقاتها الصريحة منها والضمنية؛ أي تلك المقدمات التي تُعدّ أصلاً (fondement) يُبنى عليها الاستدلال الحجاجي للخلوص إلى النتائج ويُنطلق منها لاشتقاق مفاهيم أخرى وتفريعها بوصفها مفاهيم يتكاثر بها الخطاب حيث يجب أنّ تحوز المقدمات على شروط تُقوّي إمكانية قَبول النتائج المُتولدة عنها وتسوّغها.

مقدمة :

يستدل الخطاب اللّساني عقليا بالحُجج القولية والخَطابية، من جهة كون اللغة الطبيعية هي مادة الدليل، حين ينتقل من نظام العقل (التفكير) إلى نظام الخطاب، حيث لا تتطلب انتقالاته تسلسلاً صارمًا للقضايا كما هو الحال في البرهان الصوري، لأنّ مقدّمات (مواضع) ونتائج هذا الخطاب هي دعاوى جاءت في صيغة جُملٍ وعباراتٍ ووحدات لفظية (المُصطلحات)، ممّا يدفعنا إلى طرح هذه التساؤلات الوجيهة الّذي مفادها:

إذا كان اختيار المُقدمات وطريقة عرضها وترتيبها ذو قيمة حجاجية في حدّ ذاته فما الوظيفة الخَطابية التي تنهض بها؟ وما مدى حُجّيتها في الخطاب االلّساني؟ وما مكانتها في بناء الخطاب الحِجاجي وتسويغه وضمان صحة الاستدلال؟ وما مدى قدرتها على إحراز التماسك والإقناع؟ وهل اختيار المقدمات من شروط قيام اللّسانيات عِلماً؟ وما صلتها بمعقولية (rationalité) الخطاب الحجاجي؟ وهل نظر إليها سوسير من مداخل نظر جديدة؟

لمّا كان الفعل الحجاجي مُركبًا إذ يتعذر قيامه ـــ في العادة ـــ على لفظة واحدة أو قولٍ واحدٍ، إنّما تلزمه مجموعة من الأقوال، حيث يقوم على ملفوظين أو قولين هما دعوى تُلازمها حُجَّة حيث ينبني الحِجاج على قضيتين على أقل تقدير. فإنّ وضع المُقدمات[2] لا يقف عند حدّ وضع عناصر يُنطلق منها فحسب، بل يتعداه إلى تحضير الاستدلال الحِجاجي وتهيئة العملية الإقناعية برمتها، لأنّه متى اقتربت المُقدمات من البداهة (بغير المعنى الديكارتي الذي لمصطلح البداهة) إلا وزادت من إضفاء المصداقية على المُحاجَّة في كُليّتها، حيث تستوي

[1] لقد دَرج النُظّار في المُحاجَّة، وعلى رأسهم تولمين (S.Toulmin)، على اعتبار التعليل الوظيفة الأساسية للحُجّة وما سواه من استعمالات فهو ثانوي.

[2] حصرت الأدبيات الحجاجية المقدمات في ؛ الوقائع، والحقائق، والافتراضات، ونسبية القيم(الهرميات)، والمواضع.

حاجة طرائق التدليل[3] الخَطابي الحجاجي[4] سواء تلك التي تسلك المسالك اللغوية (الطبيعية) أو المسالك المنطقية (الصناعية) إلى صدق المُقدمات.

يتوخى هذا النمطُ من الحِجاج ـــ محل السبر والدراسة ـــ كما تشيعه الأدبيات الإبيستمولوجية بناء المعرفة وتمتينها عن طريق التدليل الذي يسلك في ذلك مسالك خَطابية (démarches discursives) ، لإنشاء حقائق ذات معقولية مُتسعة تأخذ بالتدليل المستند، دون أن تقف عند حدود البرهان الصوري[5] الضيّق وتحصره فيه، بسبب ظُهور مبدأ نسبيّة الصدق المنطقي الذي أفضى بدوره إلى مبدأ مُرونة الحقيقة العلمية بشكل عام (6).

المُراد بالخطاب السُوسيري؛ هو مجموعة الأقوال ذات المضمون الفكري بما هو بُنى دلالية واستدلالية؛ أي خطاب ذو طبيعة لغوية ومنطقية، فسُوسير يكون قد بنى خطابه على أكثر من جُملة واحدة، وعرض موضوعات نظره في مجموعة من الأقوال لا تَسعها جُملة واحدة، حيث يظهر في المقام الأول بُعدها الخطابي؛ بمعنى أنّ العِماد الحامل لمقاصده الحجاجية هو الخطاب.

لا يغيب عن الناظر تعذُر الاستغناء عن التصوّرات الأولية في المُحاجّة العلمية على الرغم من صعوبة إثباتها أو إبطالها، ولمّا كان الخطاب العلمي يتألف من سِجل مفهومي (inventaire conceptuelle)، ومن وحدات المُعجم العلمي (المُصطلحات)، ومن علاقات منطقية ناظِمة (تأليفية، تركيبية) بين هذه المفاهيم التي يقوم عليها سِجله المفهومي، ومن إجراءات خَطابية وأفعال لغوية مُنظمة منهجيًا، فلا مناص من التساؤل عن التنظيم الحجاجي بوصفه حاملا وعِمادًا رئيسًا لمضامين هذا السجل المفهومي للخطاب اللّساني المحمول على الخطاب العلمي النّظري، حيث سينصب التحليل في هذا المقال على موقف سوسير من قضية مقدمات المُحاجَّة في الخطاب اللّساني.

فالمفهوم (notion) هو وحدة معرفية مُعبر عنها بكلمة أو بتعبير تحتوي على مجموعة من الأشياء أو الأحداث أو العلائق وهذه المجموعة تملك عناصر أو خصائص مُشتركة[7] إذ المفهوم وحدة معرفية تنتمي لرؤى نظرية أو لتصوّرات عقلية أو لنماذج فكرية وعلى هذا عُدّ المفهوم مدخلاً أساسياً لتأسيس الخطاب المعرفي.

---

[3] يغلب استخدام مُصطلح التعليل في مجال العلم الطبيعي في حين قد غلب استخدام مفهوم التدليل في مجال المعرفة الفلسفية والمنطقية. ينظر: طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة ج1، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1995، ص، 178.

[4] مما عليه الاجماع أن الأدلة الخطابية هي؛ حُجج السلطة، والحجج التي تستدعي افتراضات مشتركة، والحُجج التي تقوم على عرض الواقع، والحَجج التي تستدعي تماثلاً.

[5] يقوم التدليل الذي يسلك المسالك الخطابية بتطويع القواعد الصورية الصارمة بما يتوافق وخصائص الاستدلال الحِجاجي باللغة الطبيعية.

[6] ينظر: بنّاصر البُعزّاتي، الاستدلال مستويات في القوة والوثاقة، ضمن آليات الاستدلال في العلم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2000،1.

[7] ـــ محمد مفتاح وأحمد بوحسن، المفاهيم تكونها وسيرورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2000، ص18.

إنّ المفاهيم هي تصوّرات عقلية مُجردة تُمَثل خَطَابياً برمز أو كلمة (مُصطلح) أو جملة تنهض بوظيفته الدلالة على شيء، أو موضوع، أو ظاهرة مُعينة، إذ تنهض المفاهيم في البنية التفسيرية للخطاب العلمي النّظري بوظيفتي الفهم والقدرة الكافية على التفسير.

إنّ الخطاب العلمي نمط من القول له عَقدُ (code) كلام خاص به يتميز بإستراتجيته الاستدلالية (يتوسل بجملة من الأدلة) الملازمة لمقتضيات المُحاجَّة العلمية المصاحبة لعملية الادعاء العلمي أو الاعتراض أو التعليل (التسويغ) التي تروم التأثير في العمليات العقلية والمعرفية للآخر(المعروض عليه)، فالنصّ العلمي في جوهره نصّ وظيفي ينهض بتبليغ المعرفة للمتلقى حيث يسعى إلى تبليغ المفاهيم المختلفة شرحاً وتحليلاً قاصداً تحصيل الفهم وحيازة الاقناع الذي يتولد من بناء الخطاب بصفة مُحكمة ومعقولة من خلال عرض المُحاجج مسار تشكلها بغية فهمها والتمكن من إعادة إنتاجها.

بُنيت المُحاجَّة السُوسيرية على مواضع علمية خاصة بعلم اللسان البشري (topoï scientifiques)[8]، وتعريفات تطلب الوضوح والبساطة، وتسعى إلى بلوغهما حيث يقوم التطور التاريخي لبناء خطابه الاستدلالي دليلا على ذلك، إذ تُبيّن الدّراسة الفيلولوجية للمخطوطات (تحقيق النصوص) الهَاجِس الكبير الذي تملّك سُوسير إزاء الوضُوح والبَساطة، حيث حال هذا الهاجس بينه وبين النشر العلمي[9]، فالوضوح (la clarté) كما هو معلوم من المعايير الواجب توافرها في الخطاب العلمي، على الرغم من صُعوبات التحقق منه.[10] لأنّ الوضوح يدفَعُ الإيهام والمُغالطة على الحِجاج المنشود الذي يتكئ على الكفاءة التّداولية في إيضاح الحُجّج ليغدو بذلك فعلاً تأثيريًا، ذلك أن الخلط في المفاهيم وجه من وجوه عدم كفاية الحُجّة واضطراب لحمتها.

لقد رَكّن سُوسير في مرحلة من مراحل بناء استدلاله على نحو مُناسب لمقتضى المُحاجَّة ـــ كما نتصوّر ـــ إلى طرائق الاستدلال في الرياضيات وعلى وجه الخصوص الاستدلال في الهندسة[11] مُحاولاً بناء خطابه التدليلي على طريقة المُهندسين،

---

[8] هي في الحِجاج اللساني بما هو جنس ذو صلة مباشرة بالتأليف المنطقي للأقوال، مواضعَ خاصة بعلم اللسان البشري(topoï scientifique)، وليست مواضع عامة (= المشهورات) يُلجأ إليها في كلّ حجاج يروم الإقناع، بغضّ النّظر عن جنس الخطاب ونمطه.

[9] تبيّن لنا دراسة أجراها الباحث صوفيا(Es Sofia) حول أسلوب الكتابة السُوسيرية في المخطوطات أنّ سُوسير أعاد صياغة عبارة من عباراته (reformulation) في تحرير فقرة تتناول موضوعا تطبيقيا تقنيا محضاً من موضوعات الفنولوجيا 34 مرة .

[10] يمكن اللجوء إلى حكم المعروض عليهم لبناء معيار الوضوح من جهة أنّ الأقوال الّتي يتجادل حول معناها ومحملها الصحيح أجيال من الأكاديميين والباحثين باعتبارهم مؤولين تبدو مفتقدة لسمة الوضوح .

[11] اقترح سُوسير في الحوار الّذي دار بينه وبين تلميذه ريدلينجر Riedlinger بتاريخ 6 ماي 1911 نظاما هندسيا يجب للسانيات العامة أنّ تكون عليه، حيث أكد سُوسير على أنّ الحقِيقة الأولى الّتي يجب

حين ظهرت له طرائقهم حَصِيفة وفق ما توضّحه نظرية التعريف المنطقي (D. conséquente) عنده في الكتابات المنشورة حديثا بوصف التعريف من حُجج التأطير(l'argument de cadrage) ثمّ تراجع عن الحاجة إلى البديهيات (بمعناها الرياضي) لتدارك عجزها الإقناعي واكتفى بدلاً منها بمفهوم الفكرة الجامعة (aphorisme) الّتي راهن عليها ضامنا لترابط المفاهيم وانسجامها الحجاجي(cohérence argumentative) التي تبدو بمنزلة قانون العبور (loi de passage) كما هي في اصطلاحات تولمين(S.Toulmin).

يُعبّر سُوسير في خطابه عن قضية المُقدمات[12] بعبارة " نقطة انطلاق" التي يغلب ورودها في خطابه مقترنة بالبرهان، كما يُعبّر عنها في مواضع أخرى بعبارة "نقطة ارتكاز(اتكاء)" وإن كانت العبارة الثانية تميل إلى الدلالة على السند(الدعامة) حيث تأتي مُقترنة بالفكر(esprit).

وبناء على ما تم ذكره، يمكن أن نُلخّص محاور الاشتغال الحِجاجي السُوسيري من خلال توضيح المقاصد المعرفية الّتي كان سُوسير يروم تحصيلها وهي :

1. ***بناء النسق النّظري المُوجّه.(الأصول النّظرية المُوجِهة (المقدمات)).***
2. ***تعيين الواقع الّذي يتجه إليه الاشتغال العلمي. باعتبار الوظيفة المرجعية التي يؤديها الحِجاج من حيث هو وسيلة لوصف العالم.***
3. ***بناء المناهج الإجرائية الناجعة الّتي يُعتمد عليها لدراسة هذا الواقع.***

وإذا كانت هذه هي المقاصد الكبرى للخطاب السُوسيري، فإنّه يكون قد سلك مسلكين حجاجيين لتحصيلها هما:

المسلك النقدي :(Critique) الذي يصطلح عليه سُوسير بالمنهج التطبيقي(التحليل) يتجلى في سعيه إلى مُراجعة الأصول العقلية والعلمية لعلوم اللغة السّابقة عنه والمعاصرة له، إذ يوضّح هذا المسلك ابيستولوجية سُوسير أو موقفه الفلسفي العام من قضايا اللسان البشري موضوع الدراسة.

إحلالها في هذا النّظام الهندسي قِوامها؛ " اللسان" مختلف عن " الكلام " وهذا التأكيد دون شك هو الّذي أقنع الناشرين في استهلال المحاضرات به، حيث راموا شرح الجوانب الايجابية فيه وضمان استقلالية اللسانيات به. ينظر: الطبعة لاالنقدية للمحاضرات، الأصل الترجمة الفرنسية ،(دومورو، الحاشية النقدية، رقم 216 ص 459).

[12] قد يطلق مُصطلح الأصول (fondements) مرادفا لمصطلح المقدمات بالمعنى المتواتر به في الأدبيات الحِجاجية، والمُراد به مُنطلقات المُحاجَّةُ فالأصل كما عرّفته الأدبيات التراثية:« هو ما يُبنى عليه غيره ولا يفتقر هو إلى غيره»، أو كما عرّف الخوارزمي الأصول منسوبة إلى البرهان بقوله:« أصول البرهان هي المبادئ أو المُقدمات الأولى [...] »[12]، وهي بصفة عامة أقوال الانطلاق التى يُفضي البناء عليها بلوغ النتائج،

المسلك البِنائي:(Constructive) الذي يصطلح عليه سُوسير بالمنهج النّظري(التركيبي) وهو المسلك التأسيسي المُتمثل في وضع الحُدود(التعريفات) والمُقدمات والتصوّرات النّظرية المُوجّهة لاستدلالاته[13].

إنّ المُقدمات النّظرية هي الثوابت التي ترسخت في ذهن المُحاجج باعتبارها النتاج المُستصفى من إعمال النّظر وتقليب الفكر في الموضُوع المدروس بما يخوّلها لتصبح محَجَّتُه ومُوّجهه في مُزاولته العلمية[14]، حيث لم يكن سُوسير، كما يتبدى لنا من خطابه، إلاّ رجُل أصُول[(15)] ومبادئ، أو ما يسوغ أن نصطلح عليه بالمُقدمات المعرفية الضّمنية (les épistèmes) التي تقوم مقام الشبكة التحتيّة الناظِمة للخطاب العلمي[16] المُنجز، والتي لا تتسم بالبداهة إطلاقا بل هي راجحة[17]، ثمّ البناء عليها للتوسع والانتقال[(18)] في تفسير مظاهر اللّسان

---

[13] التزام سُوسير بمقتضى مقدمة النظامية (systématicité) التي تظهر في توجيه أفعاله الحِجاجية لتدعيم مقصده الجامع من خلال سعيه لتحقيق الوحدة المفهومية والفكرية لخطابه الحِجاجي متوسّلا في ذلك طُرقا خطابية عدة؛ منها جعله لمقدمة الاعتباطية الجذرية لمؤسسة اللسان البشري بمنزلة الفكرة والأصل النّظري المُوجّه، حيث جعلها بمثابة الخيط الناظم والمعنى الجامع للخطاب والضامن لتسلسل الأقوال وتدرجها المُحقق لملاءمة النتائج بالمقدمات، والمُسوّغ الذي ينتقل به سُوسير من قول الانطلاق إلى قول الوصول، مُتجنبا بذلك القفز الحدسي إلى النتائج؛ أي الانتقالات(progression) المُباشرة دون استدلال أو عرض الادعاءات المعرفية المرسلة العارية من التسوّيغ التي لا تستجيب لشروط الادعاء العلمي من جهة افتقارها إلى السند العقلي المقبول.

[14] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، المرجع السابق.

[15] - E Benveniste, ibid,« Saussure est d'abord et toujours l'homme des fondements il va d'instinct aux caractères primordiaux, qui gouvernent à la diversité du donné empirique ».p 38.

[16] من قبيل المبادئ المنظِمة للمعطيات اللغوية الملاحظة.

[17] يعبر سوسير عن قضية رجحان المقدمات بالمُوجّه الحجاجي " أفضل المنطلقات الممكنة " ذِي القصد الترجيحي الذي يدفع عن حجاجه صفة القطعية (اليقينية) المُفضية إلى الوثوقية في الاعتراض والعرض لأنّ الحِجاج في الحقيقة هو بحث من أجل ترجيح خيار من بين الخيارات الممكنة، حيث تُظهر المفاضلة بين الحجج طابعها الترجيحي؛ أي أنّ سُوسير فاضل بين الحجج فرجّح ما بدا له أفضلها، كما يصبغ هذا الترجيح على حجاجه صبغة العقلانية من جانبها البراغماتي في نزوعها إلى اتّخاذ المُقدمات الّتي يقبض عليها الذهن وتتولد من البناء عليها درجة عالية من المعقولية. لأنّ هدف الخطاب ليس بلوغ الحقيقة التي يتعذر وجودها مُطلقة، وإنّما هدفه هو النجاعة الّتي هي تحصيل معقولية أكثر معقوليةً من الخطابات الأخرى المُشاركة له في اللحظة التاريخية.

البشري دون فقدان التّرابط المنطقي الداخلي للخطاب، بغية المحافظة على خيط تماسكه العضوي حين تدرّجه وانتقاله (progression) من قضية إلى أخرى، فالمُقدمات على هذا، تنهض بوظيفة خَطابية لا تقل عن وظيفة إضفاء المعقولية (rationalité) على التمشي الحِجاج (démarche argumentative) الذي يتضمن ما يتضمنه المقطع الحِجاجي.

إنّ اللافت في خطاب سُوسير الحجاجي دوران قضية المُنطلقات في أكثر من موضع حيث أضفى عليها طابعاً إشكالياً يتضح لنا من خلال النفي السجالي (négation polémique) حين قال:« ما من مُنطلق في اللّسانيات يمكن أن نركَن إليه ونجعل منه مُنطلقاً بديهيا»[19]، ثمّ يستنتج جازما بعدما أعياه تقليب النّظر في الترجيح بين المُنطلقات:« يبدو لنا تعذُر ترجيح حقيقة لسانية وجعلها موضع المُنطلق المركزي»[20].

يدل المقطعان الحجاجيان المُقتبسان دلالة واضحة على وجَاهة القضية وعلى وعي سُوسير بمكانة المُقدمات في بناء الخطاب الحِجاجي ووظيفتها في إحكام بنية الحُجّة وتجويد الاستراتيجية الحِجاجية بما يضمن لها تحصيل مراميها.

على أنّ سُوسير في خطابه قد ألحّ على ضرورة الانطلاق من نقطة مُحددة وثابتة حين قال : « بغية عرض قضايانا في كُليّتها ينبغي لنا أنّ نتخذ نقطة انطلاق مُحددة وثابتة »[21]

---

[18] ـ يطلق سُوسير مُصطلح (développement) للدلالة على مُصطلح التوسع أو الانتقال أو التدرج الّذي يُعبّر عنه في الأدبيات الأجنبية بـ : (Progression) وذلك حين يقول :

F. De. Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique préparé par T.de Mauro, Paris, Payot, 1979 : « le problème linguistique est avant tout sémiologique est tous nos développement empruntent leur signification a ce fait important », p p. 34. 35. et voir: p.83.

ـــــ يحسُن أنّ نشير إلى أنّ الترجمة التونسية للمحاضرات قد ترجمت هذا المُصطلح بـ: التحليلات. الّتي تعني تحليل القضايا قصد الحصول على معرفة ذات طابع استدلالي.

[19] F De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p 281.

[20] F De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p 17 .

[21] F De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p 198.

يظهر لنا توسل سوسير بالفعل(ينبغي)[22] الدال على الصرامة الخَطابية للغة العلم كونه من أفعال الوجوب من الصنف المُؤكد التي تنهض بوظيفة تعزيز التوجيه (orientation) الحجاجي صوب النتيجة، كما نستشف كذلك من هذا المقطع مفهوم القضايا في كُليّتها(L'ensemble de nos propositions)، وكذا تحديد نقطة الانطلاق وثباتها(fixe et défini)؛ أي الالتزام بتحمل مسؤولية مضامينها (فحواها) ولوازمها في مسار(trajet) تدرّج الاستدلال التفسيري لظواهر الموضوع المدروس والوفاء لها ؛ بمعنى استغراق جميع مراحل التفسير وهو التزام سُوسير بعبء التدليل بها الذي يقتضى قصدًا خاصًا إذ يُلزمه بالتماسك الموضعي (consistance topique)؛ أي تحمل المسؤولية المعرفية اللازمة من التدليل بمقدمة ما.

كما يُورد سُوسير قضية العلاقة بين المُنطلقات واقترانها المنطقي بالنتائج المُراد تحصيلها في مقطع حجاجي صيغ تركيبياً بأسلوب الشرط الدال على التلازم في الكتابات المنشورة حديثا(2002) حين قال : «هناك خمس أو ست حقائق أساسية مُتصلة فيما بينها؛ حيث مهما انطلقنا من واحدة منهن أمكن لنا منطقيا بلوغ كُلّ الحقائق الأخرى » [(23)] . إلى جانب ما كان قد ورد في المحاضرات المنشورة في نسختها الشّائعة 1916 من بيانه للبناء العقلي المُنظِّم للخطاب النّظري ذي الطابع الاستدلالي في مقطع حجاجي بيّن فيه آليات بناء المعارف ووجوه تقريرها وضوابط بناء النظريات العلمية حيث يقول: « لكن غالبا ما يكون اكتشاف حقيقة من الحقائق أقلّ عناء من إحلالها المحل الّذي يليق بها»[(24)].حيث رتب سوسير في المقطع السالف إجراءات بناء المعرفة العلمية وفق منظوره جاعلا تنظيمها أصعب المراحل.

يُعقب مونان (G.Mounin) مفسراً مُصطلح " المحل" الوارد في مقتبس سُوسير من وجهة نظر ابيستمولوجية بالقول إنّ المقصود منه هو المكانة الّتي تليق بها في صُلب النّظرية[(25)]. أما من وجهة نظر حجاجية، فإنّ المراد منه هو الموضع الخطابي (topique discursif).

---

[22] ينظر: محمد الهادي عيّاد، الخصائص الأسلوبية للخطاب العلمي في التراث العربي، دار سحر للنشر،تونس.

[23] F. De. Saussure, Écrits de linguistique générale, texte établie et édité par : Simon Bouquet et Rudolf Engler, Éditions Gallimard, 2002. p 17.

[24]- فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، المرجع السابق، ص.112.

[25] - على أنّ مونان قد اعترض على هذا المبدأ معتمدا في ذلك على ما ورد في المخطوطات حيث ذهب القول به إلى أنّ هذه العبارة لم تكن بهذا الوضوح العجيب في المخطوطات وهو بذلك يوحي إلى

كما يشير المقطع الحجاجي السالف كذلك إلى قضية بالغة الأهمية وهي قضية عَطف الحُجّج بعضها على بعض، لأنّ المُحاجَّة لا تؤدي وظيفتها الحقيقية ولا تُحصّل مقصديتها الإقناعية، إلا إذا قامت على شروط مُحددة تفقد نجاعتها إذا تخلفت تلك الشروط، ومن أهم هذه الشروط ما تعلق بالحُجّة في سياقها الكُلي، إذ ينبغي للحُجّج أن تكون مُتعاضدة مُتساندة غير متعارضة مع الحُجج الأخرى في حالتي العرض والاعتراض.

يصف سُوسير مجال المُحاجَّة في اللّسانيات العامة وعلاقته بمنطلقاته بالمجال الّذي يستعصي فيه بناء استدلال رصين، لأنّ أرضية الحِجاج فيه ليست مُمهدة بما يُسَّهل التدرّجُ فيها حين وصفها سُوسير في الكتابات المنشورة حديثا (2002) بالمُستنقع حيث يقول:« يتجلى لنا تعذر فهم ماهية اللسان إلاّ إذ توسّلنا بأربعة أو خمسَة مَبادئ مُتشابكة على الدوام تبدو على هيئة وكأنّها جُعلت خصيصًا لتخدع أكثر العقول يقظة وفطنة لفكرها، فهي إذاً، مُستنقعٌ حيث على كلّ فقرة أنّ تبقى قطعة صلبة مُنغرسةً فيه مع قدرتها على الاهتداء إلى طريقها نحو الأمام أو الخلف ».[26]

يظهر من المقطع الحجاجي السالف الذي وصفت فيه فقرات ومقاطع الخطاب اللّساني النّظري الواصف(métalangage) في صلب الخطاب الكُلي ما يلي :

- الخطاب الكُلي مستنقع. وهو ميدان الخطاب النّظري الّذي يتضمن السمات الدّلالية الدنيا التالية: (ماء، يابسة رخوة غير مُمهدة، الغرق، صعوبة التقدم).
- قطعٌ أرضية مستقلة تطفو على سطح مستنقع.
- تماسك المبادئ فيما بينها في إشارة واضحة من سُوسير إلى ترابط المبادئ فيما بينها.

كما يتّضح لنا كذلك، توسل سُوسير بحجة التمثيل في المقطع الحجاجي السالف بغية توضيح قضايا ابيستيمولوجية غاية في التجريد في سياق الكتابات(2002) المُوّجهة أساسا للنشر العلمي كونها مُسودة كتاب في أصلها ، ولم تكن مُوجهة للتبليغ البيداغوجي كما كان الحال في المحاضرات في نسختها الشائعة 1916، ممّا يكشف لنا أنّ الحقيقة المعرفية التي نريد تبليغها متى كانت أكثر تجريدًا وجب علينا أنّ نُزينها لإغواء الحواس[27]، بمقتضى كون المحسوسات أكبر وقعاً حجاجيا من الذهنيات المُجردة، كما يتعذر على التفكير المُجرّد أن يتحقق تحققا واقعيا إلاّ من خلال تعيينات ولو كانت تمثيلية، إذ لا محتوى دون صورة كما تنتفي الصورة الخالصة، لقيامها

أنّ يد الناشرين قد امتدت إليها فهذبتها وصاغتها صياغة فلسفية عامة. ينظر: جورج مونان، اللسانيات في القرن العشرين، الأصل الفرنسي، ص63.

[26] تصرفنا في الترجمة بما ظهر لنا مُناسباً لمُقتضيات التعبير باللغة العربية ينظر:

F.De Saussure, Écrits de linguistique générale, ibid, p .95.

[27] حافظ إسماعيلي علوي، الحِجاج مجالاته ومفهومه،المرجع السابق، 3 ص 61. بتصرف.

على نُزوعنا الطبيعي للتفكير بالصُور لأنّ خلق الصُور ــ على حد تعبير البُعزّاتي ــ جُزء مُندمج في النشاط المفهومي وليس غريبًا عن بناء المعرفة[28]، وبناء علية يسوغ لنا اعتبار توسّل سُوسير بالآليات البلاغية من تشبيه واستعارة من السمات النمطية في أسلوبه الحِجاجي[29]. حيث تشير الآلية البلاغية التي رُكّب عليها المقطع الحجاجي السالف إلى صُعوبة التدرّج والانتقال(progression) بين قضايا الخطاب اللساني بوصفها أشبه ما تكون بجزر صغيرة سابحة على سطح مُستنقع.

وقد ذهب بعض النقاد في تفسيرهم مقصود سُوسير من تِعداده للمبادئ السالفة إلى حملها على الثنائيات السُوسيرية الّتي تُطابقها من حيث العدد، وهو صنيع فرنسوا راستيي(F.Rastier) مُستندا، كما نرجح ذلك، على صياغة هذه الفقرة الواردة في الكتابات الحديثة[30] التى ورد فيها وصف تلك الحقائق بالثنائية، إلاّ أنّ هذا التأويل في واقع الأمر هو من قبيل التدليل على الأوضح بما هو أقلّ جلاء منه بسبب انتهاكه مبدأ تكثير الفائدة، لأنّه لا يلتفت إلى قضية التمامية (complétude) الّتي تظهر من تعداد سُوسير لعدد الحقائق الّتي لا تقبل الزيادة ولا النقصان في النسق النّظري المُوجّه حال إحكامه، وعدم تركه مفتوحا نُشداناً لمقتضيات الاقتصاد في الفكر(الذي يقابله الإيجاز على المستوي القولي التعبيري concision) من جهة وتحقيقا للانسجام المفهومي، باختيار المُقدمات المتسمة بالأوّلية أي؛ التي تستغني عن غيرها درءا للوقوع في التسلسل إلى غير نهاية، وعليه ساغ لنا اعتبار سُوسير رائدا من رواد القول؛ إنّ المزاولة العلمية تستوجب النظامية بوصفها حُجّة نقدية تقويمية صحَحَ بها استدلالات مُعاصريه وبنى عليها منهجيته النقدية في الاعتراض.

خاتمة

---

[28] بناصر البعزّاتي، تكوّن المعارف، مطبعة النجاح، ط1 الرباط المغرب،2005، ص45.

[29] إنّ إدراك سُوسير طرافة القضايا التي عالجها لم يفض به إلى عدم التخلي عن الاستعارات البيولوجية من قبيل استعارة الشجرة والكائن العضوي فحسب، وإنّما لجأ كذلك على مدار كل خطابه إلى التشبيهات بغية توضيح المفاهيم التي شعر بجدتها نزولا عند مقتضيات بناء المعرفة العلمية وتبليغها حيث وردت التشبيهات والاستعارات في الكتابات المنشورة حديثا من تشبيه اللغة بالجدول الجبلي الذي يتعذر تحديد منبعه، وهي كذلك كالجبل الجليدي، واللسان بمنزلة السفينة التي تلامس البحر وليس بمنزلة السفينة الراسية في مرفأ المصنع، والدليل اللغوي لا يشبه قطعة القماش في عنبر السفينة بل هو الراية المرفوعة على ساريتها...الخ.

[30] F.De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p298.

إنّ النظر إلى المُقدمات في ذاتها لا طائل من ورائه ما لم يُشفع بالنظر إليها من جهة كونها منظومة من الأقوال الّتي تخول تدرج الخطاب في صلب البنية الحِجاجية التفسيرية الكُليّة ووظيفتها في المنظومة الحِجاجية في بناء النظام المفاهيمي المُحكم ومدى التزام المُدعي بها من جهة ومدى ملاءمتها للمجال اللساني ومناسبتها له والنتائج اللازمة منها من جهة أخرى. لأنّ معيار الملاءمة (pertinence) يركز على علاقة المُطابقة بين المُقدمات والنتائج.

يستفاد مما سلف أن سوسير قد جعل النظامية شرطًا من شروط صحة القول العلمي من خلال اندراج الأقوال العلمية في نظام مفاهيمي مُتماسك، إذ تُعدّ النظامية الصفة الذاتية لأيّة معرفة علمية معقولة من خلال الاقتضاء الذي استنبطناه(le vrai c'est le tout)، لأنّ العلاقة بين المفاهيم العلميّة المعرفية ليست تجميعًا بسيطا لا نظام فيه (simple juxtaposition).
كما أنها من القيود التي وضعها سُوسير لصحة القول العلم مُستدلا على وجاهة الزعم بالقول؛ إنّه من اليسير جدًا أن نرصف وجهات نظر إزاء اللسان، ولكن من الصعب أن نجعل من تلك الأقوال نظاماً مُحكمًا صارمًا.

فمُقتضى صفة اللغة العلمية في الخطاب لا يُحمل على الإنتاج والصناعة والخلق، إنّما محمولها على أنه شيء مُفَكرٌ فيه عقلياً يتمتع بخاصيتي التعالي وإحداث النظام[31]، لأنّ فقدان خاصية النظامية (systématicité) مؤذن، لا محالة، بحدوث الفوضى ووقوع اللّساني تحت رحمة الظواهر اللغوية وتشعبها المُفرط.

إنّ محاولة البرهنة على كُلّ حقيقة في صلب الخطاب العلمي يترب عليه البحث عن حقيقة أخرى تتبعُها وتسندُها، وهكذا إلى أنّ نحصل في نهاية المطاف على مسار استدلالي مُتسلسل تسلسلاً في الطلب إلى غير نهاية على هذه الصورة؛ (أ هو سَند ب، وج هو سَند أ، ود هو سَند ج... إلى غير نهاية)، ممّا يُفضى إلى عدم انتظام العلم انتظامًا تامًا فيترتب عليه تعذر الانتهاء إلى العلم بقضية أبداً **فالمُقدمات المعرفية، كما صوّرها النُظّار تصويرا تمثيليًّا بليغًا، هي بمنزلة رأس مال المتجر العلمي.**

إنّ حمل هذه المقدمات على وجه واحد من جهة التوجيه (orientation) صوب إسناد النتيجة يلزم منه صعوبة التسليم بوجود الحقيقة المعزولة القائمة برأسها التي لا تندرج في بنية مفاهيمية كُليّة في ميدان الخطاب العلمي النظري، كما يستفاد مما سلف أن وضوح المُنطلقات (المقدمات) وتلاؤم المسار الحجاجي معها، ثم لزوم النتائج من المنطلقات شرطًا من شروط نجاعة المُحاجَّة وممارسة التفكير المعرفي الصائب.

[31] ـــ زكرياء أرسلان، ابيستمولوجية اللغة النحوية بحث في مقاييس العلمية ومرجعيات التأسيس والتأصيل، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1،2016. بتصرف.

الاحالات:

لقد دَرج النُظّار في المُحاجَّة، وعلى رأسهم تولمين (S.Toulmin)، على اعتبار التعليل الوظيفة الأساسية للحُجّة وما سواه من استعمالات فهو ثانوي.

[1] حصرت الأدبيات الحجاجية المقدمات في ؛ الوقائع، والحقائق، والافتراضات، ونسبية القيم(الهرميات)، والمواضع.

[1] يغلب استخدام مُصطلح التعليل في مجال العلم الطبيعي في حين قد غلب استخدام مفهوم التدليل في مجال المعرفة الفلسفية والمنطقية. ينظر: طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة ج1، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1995، ص، 178.

[1] مما عليه الاجماع أن الأدلة الخطابية هي؛ حُجج السلطة، والحجج التي تستدعي افتراضات مشتركة، والحُجج التي تقوم على عرض الواقع، والحَجج التي تستدعي تماثلاً.

[1] يقوم التدليل الذي يسلك المسالك الخطابية بتطويع القواعد الصورية الصارمة بما يتوافق وخصائص الاستدلال الحِجاجي باللغة الطبيعية.

[1] ينظر: بنّاصر البُعزّاتي، الاستدلال مستويات في القوة والوثاقة، ضمن آليات الاستدلال في العلم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2000،1.

[1] ـــ محمد مفتاح وأحمد بوحسن، المفاهيم تكونها وسيرورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2000، ص18.

[1] هي في الحِجاج اللساني بما هو جنس ذو صلة مباشرة بالتأليف المنطقي للأقوال، مواضعَ خاصة بعلم اللسان البشري(topoï scientifique)، وليست مواضع عامة (= المشهورات) يُلجأ إليها في كلّ حجاج يروم الإقناع، بغضّ النّظر عن جنس الخطاب ونمطه.

[1] تبيّن لنا دراسة أجراها الباحث صوفيا(Es Sofia) حول أسلوب الكتابة السُوسيرية في المخطوطات أنّ سُوسير أعاد صياغة عبارة من عباراته (reformulation) في تحرير فقرة تتناول موضوعا تطبيقيا تقنيا محضاً من موضوعات الفنولوجيا 34 مرة .

[1] يمكن اللجوء إلى حكم المعروض عليهم لبناء معيار الوضوح من جهة أنّ الأقوال الّتي يتجادل حول معناها ومحملها الصحيح أجيال من الأكاديميين والباحثين باعتبارهم مؤولين تبدو مفتقدة لسمة الوضوح .

[1] اقترح سُوسير في الحوار الّذي دار بينه وبين تلميذه ريدلينجر Riedlinger بتاريخ 6 ماي 1911 نظاما هندسيا يجب للسانيات العامة أنّ تكون عليه، حيث أكد سُوسير على أنّ الحقيقة الأولى الّتي يجب إحلالها في هذا النّظام الهندسي قوامها؛ " اللسان" مختلف عن " الكلام " وهذا التأكيد دون شك هو الّذي أقنع الناشرين في استهلال المحاضرات به، حيث راموا شرح الجوانب الايجابية فيه وضمان استقلالية اللسانيات به. ينظر: الطبعة لاالنقدية للمحاضرات، الأصل الترجمة الفرنسية ،(دومورو، الحاشية النقدية، رقم 216 ص 459).

[1] قد يطلق مُصطلح الأصول (fondements) مرادفا لمصطلح المقدمات بالمعنى المتواتر به في الأدبيات الحِجاجية، والمُراد به مُنطلقات المُحاجَّةُ فالأصل كما عرّفته الأدبيات التراثية:« هو ما يُبنى عليه غيره ولا يفتقر هو إلى غيره»، أو كما عرّف الخوارزمي الأصول منسوبة إلى البرهان بقوله:«

أصول البرهان هي المبادئ أو المُقدمات الأولى [...] »[1]، وهي بصفة عامة أقوال الانطلاق التى يُفضي البناء عليها بلوغ النتائج،

[1] التزام سُوسير بمقتضى مقدمة النظامية (systématicité) التي تظهر في توجيه أفعاله الحِجاجية لتدعيم مقصده الجامع من خلال سعيه لتحقيق الوحدة المفهومية والفكرية لخطابه الحِجاجي متوسّلا في ذلك طُرقا خطابية عدة؛ منها جعله لمقدمة الاعتباطية الجذرية لمؤسسة اللسان البشري بمنزلة الفكرة والأصل النّظري المُوجِّه، حيث جعلها بمثابة الخيط الناظم والمعنى الجامع للخطاب والضامن لتسلسل الأقوال وتدرجها المُحقق لملاءمة النتائج بالمقدمات، والمُسوّغ الذي ينتقل به سُوسير من قول الانطلاق إلى قول الوصول، مُتجنبا بذلك القفز الحدسي إلى النتائج؛ أي الانتقالات(progression) المُباشرة دون استدلال أو عرض الادعاءات المعرفية المرسلة العارية من التسوّيغ التي لا تستجيب لشروط الادعاء العلمي من جهة افتقارها إلى السند العقلي المقبول.

[1] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، المرجع السابق.

[1] - E Benveniste, ibid,« Saussure est d'abord et toujours l'homme des fondements il va d'instinct aux caractères primordiaux, qui gouvernent à la diversité du donné empirique ».p 38.

[1] من قبيل المبادئ المنظِمة للمعطيات اللغوية الملاحظة.

[1] يعبر سوسير عن قضية رجحان المقدمات بالمُوجّه الحجاجي " أفضل المنطلقات الممكنة " ذِي القصد الترجيحي الذي يدفع عن حجاجه صفة القطعية (اليقينية) المُفضية إلى الوثوقية في الاعتراض والعرض لأنّ الحِجاج في الحقيقة هو بحث من أجل ترجيح خيار من بين الخيارات الممكنة، حيث تُظهر المفاضلة بين الحجج طابعها الترجيحي؛ أي أنّ سُوسير فاضل بين الحجج فرجّح ما بدا له أفضلها، كما يصبغ هذا الترجيح على حجاجه صبغة العقلانية من جانبها البراغماتي في نزوعها إلى اتّخاذ المُقدمات الّتي يقبض عليها الذهن وتتولد من البناء عليها درجة عالية من المعقولية. لأنّ هدف الخطاب ليس بلوغ الحقيقة التي يتعذر وجودها مُطلقة، وإنّما هدفه هو النجاعة الّتي هي تحصيل معقولية أكثر معقوليةً من الخطابات الأخرى المُشاركة له في اللحظة التاريخية.

[1] - يطلق سُوسير مُصطلح (développement) للدلالة على مُصطلح التوسع أو الانتقال أو التدرج الّذي يُعبّر عنه في الأدبيات الأجنبية بـ : (Progression) وذلك حين يقول :

F. De. Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique préparé par T.de Mauro, Paris, Payot, 1979 : « le problème linguistique est avant tout sémiologique est tous nos développement empruntent leur signification a ce fait important », p p. 34. 35. et voir: p.83.

ـــــ يحسُن أنّ نشير إلى أنّ الترجمة التونسية للمحاضرات قد ترجمت هذا المُصطلح بـ: التحليلات. الّتي تعني تحليل القضايا قصد الحصول على معرفة ذات طابع استدلالي.

[1] F De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p 281.

[1] F De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p 17 .

[1] F De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p 198.

[1] ينظر: محمد الهادي عيّاد، الخصائص الأسلوبية للخطاب العلمي في التراث العربي، دار سحر للنشر،تونس.

[1] F. De. Saussure, Écrits de linguistique générale, texte établie et édité par : Simon Bouquet et Rudolf Engler, Éditions Gallimard, 2002. p 17.

[1]- فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، المرجع السابق، ص.112.

[1] - على أنّ مونان قد اعترض على هذا المبدأ معتمدا في ذلك على ما ورد في المخطوطات حيث ذهب القول به إلى أنّ هذه العبارة لم تكن بهذا الوضوح العجيب في المخطوطات وهو بذلك يوحي إلى أنّ يد الناشرين قد امتدت إليها فهذبتها وصاغتها صياغة فلسفية عامة. ينظر: جورج مونان، اللسانيات في القرن العشرين، الأصل الفرنسي، ص63.

[1] تصرفنا في الترجمة بما ظهر لنا مُناسباً لمُقتضيات التعبير باللغة العربية ينظر:

F.De Saussure, Écrits de linguistique générale, ibid, p .95.

[1] حافظ إسماعيلي علوي، الحِجاج مجالاته ومفهومه،المرجع السابق، 3 ص 61. بتصرف.

[1] بناصر البعزّاتي، تكوّن المعارف، مطبعة النجاح، ط1 الرباط المغرب،2005، ص45.

[1] إنّ إدراك سُوسير طرافة القضايا التي عالجها لم يفض به إلى عدم التخلي عن الاستعارات البيولوجية من قبيل استعارة الشجرة والكائن العضوي فحسب، وإنّما لجأ كذلك على مدار كل خطابه إلى التشبيهات بغية توضيح المفاهيم التي شعر بجدتها نزولا عند مقتضيات بناء المعرفة العلمية وتبليغها حيث وردت التشبيهات والاستعارات في الكتابات المنشورة حديثا من تشبيه اللغة بالجدول الجبلي الذي يتعذر تحديد منبعه، وهي كذلك كالجبل الجليدي، واللسان بمنزلة السفينة التي تلامس البحر وليس بمنزلة السفينة الراسية في مرفأ المصنع، والدليل اللغوي لا يشبه قطعة القماش في عنبر السفينة بل هو الراية المرفوعة على ساريتها...الخ.

[1] F.De Saussure, Ecrits de linguistique générale, ibid, p298.

[1] ـــ زكرياء أرسلان، ابيستمولوجية اللغة النحوية بحث في مقاييس العلمية ومرجعيات التأسيس والتأصيل، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1،2016. بتصرف.